

فصل

[الجمع بين الشكل وهيئة الحركة في التشبيه]

اعلم أن مما يزداد به التشبيه دقة وسحراً أن يجيء في الهيئات التي تقع عليها الحركات. والهيئة المقصودة في التشبيه على وجهين (أحدهما) أن تقتزن بغيرها من الأوصاف كالشكل واللون ونحوهما. (والثاني) أن تجرد هيئة الحركة حتى لا يراد غيرها فمن الأول قوله:

والشمس كالمرآة في كف الأشل

أراد أن يريك مع الشكل الذي هو الاستدارة، ومع الإشراق والتألؤ على الجملة الحركة التي تراها للشمس إذا أنعمت التأمل، ثم ما يحصل في نورها من أجل تلك الحركة، وذاك أن للشمس حركة متصلة دائمة في غاية السرعة ولنورها بسبب تلك الحركة تموج واضطراب عجب ولا يتحصل هذا الشبه إلا بأن تكون المرأة في يد الأشل لأن حركته تدور وتتصل ويكون فيها سرعة وقلق شديد حتى ترى المرأة لا تقرر في العين، وبدوام الحركة وشدة القلق فيها يتموج نور المرأة ويقع الاضطراب الذي كأنه يحمر الطرف، وتلك حال الشمس بعينها حين تحد النظر وتنفذ البصر حتى تتبين الحركة العجيبة في جرمها وضوئها، فإنك ترى شعاعها كأنه يهيم بأن ينبسط حتى يفيض من جوانبها ثم يبدو له فيرجع من الانبساط الذي بدأه إلى انقباض كأنه يجمعه من جوانب الدائرة إلى الوسط. وحقيقة حالها في ذلك مما لا يكمل البصر لتقريره وتصويره في النفس فضلاً عن أن تكمل العبارة لتأديته ويبلغ البيان كنه صورته.

ومثل هذا التشبيه - وإن صور في غير المرأة - قول المهلبى الوزير:

الشمس من مشرقها قد بدت مشرقة ليس لها حاجب
كأنها بُوتقة أحميت يجول فيها ذهب ذائب⁽¹⁾

[الجمع بين الشكل وهيئة الحركة في التشبيه]

وذلك أن الذهب الذائب يتشكل بأشكال البوتقة على النار فإنه يتحرك فيها حركة على الحد الذي وصفت لك. وما في طبع الذهب من النعومة وفي أجزائه من شدة الاتصال والتلاحم يمنعه أن يقع فيه غليان على الصفة التي تكون في الماء ونحوه مما يتخلله الهواء فيرتفع وسطه ارتفاعاً شديداً ولكن جملة كإنها تتحرك بحركة واحدة ويكون فيها ما ذكرت من انبساط إلى الجوانب ثم انقباض إلى الوسط فاعرفه.

ومن عجيب ما جمع فيه بين الشكل وهيئة الحركة قول الصنوبري:

كأن في غدرانها حواجباً ظلت تمط⁽²⁾
أراد ما يبدو في صفحة الماء من أشكال كأنصاف دوائر صغار ثم إنك تراها تمتد امتداداً ينقص من انحائها وتحذبها كما تباعد بين طرفي القوس وتشيئهما إلى ناحية الظهر كأنك تقربها من الاستواء وتسلبها بعض شكل التقوس الذي هو إقبال أحد طرفيها على الآخر ومتى حدثت هذه الصفة في تلك الأشكال الظاهرة على متون الغدران كانت أشبه شيء بالحواجب إذا مدت لأن الحاجب لا يخفى تقويسه ومدته ينقص من تقويسه.

ومن لطيف ذلك أيضاً - أعني الجمع بين الشكل وهيئة الحركة - قول ابن المعتز يصف وقوع القطر على الأرض:

بكرت تعير الأرض ثوب شباب رحيّة⁽³⁾ محمودة الإسكاب

(1) الحاجب: المانع من الإشراق والبوتقة: ما يذيب الصائغ فيه الذهب والفضة.

(2) تمط على البناء للمفعول ومعناه تمد - يصف أرضاً بالطيب فيقول فيها غدران يهب عليها الريح فيبدو على صفحات غدرانها أشكال كأنها حواجب لها تقوس وامتداد.

(3) قال شيخنا: قد تكون نسبة إلى الرحبة محرّكة ومسكنة الوسط بمعنى مسيل ماء الوادي.

نشرت أوائلها حياً فكأنه - نقط على عجل ببطن كتاب
وأما هيئة الحركة مجردة من كل وصف يكون في الجسم، فيقع فيها نوع
من التركيب، بأن يكون للجسم حركات في جهات مختلفة، نحو أن بعضها
يتحرك إلى يمين، والبعض إلى شمال، وبعض إلى فوق، وبعض إلى قدام، ونحو
ذلك، وكلما كان التفاوت في الجهات التي تتحرك أبعاد الجسم إليها أشد،
كان التركيب في هيئة المتحرك أكثر. فحركة الرجا والدولاب وحركة السهم لا
تركيب فيها، لأن الجهة واحدة، ولكن في حركة المصحف في قوله: «فانطباقاً
مرة وانفتاحاً». تركيب لأنه في إحدى الحالتين يتحرك إلى جهة غير جهته في
الحالة الأخرى. فمما جاء في التشبيه معقوداً على تجريد هيئة الحركة ثم لطف
وعرف لما فيه من التفصيل والتركيب قول الأعشى يصف السفينة في البحر
وتقاذف الأمواج بها:

تقص السفين بجانبيه كما ينزو الريح خلال كرع⁽¹⁾

الريح: الفصل وقيل القرد، والكرع ماء السماء، شبه السفينة في انحدارها
وارتفاعها بحركات الفصل في نزوه، وذلك أن الفصل إذا نزا - ولا سيما في
الماء، وحين يعتريه ما يعتري المهر ونحوه من الحيوانات التي هي في أول النشء
- كانت له حركات متفاوتة تصير لها أعضاؤه في جهات مختلفة، ويكون هناك
تحفل وتصد على غير ترتيب وبحيث تكاد تدخل إحدى الحركتين في الأخرى
فلا يثبت⁽²⁾ الطرف مرتفعاً حتى يراه منحطاً متفلاً، ويهوي مرة نحو الرأس،
ومرة نحو الذنب، وذلك أشبه شيء بحال السفينة وهيئة حركاتها حين يتدافعها
الموج.

(1) تقص السفين أي: تثب والنزو: الوثوب وتوقصت الركاب: نزت ووثبت والريح كزمان
ويخفف: القرد أو الفصل، والكرع بالتحريك: الماء الذي يكرع فيه وكان حق التعبير
«خلال الكرع» ولكنه اعتمد على فهم السامع فجعل الكرع خلال القرد أو الفصل وهذا
على رواية بعض من ضبطه في الشواهد بكسر الخاء على أنه «خلال» مضاف، أما
المصنف فقد رواه بفتح الخاء على أن «خلا» فعل ماض وله جار ومجرور متعلق به.

(2) أثبتته: عرفه حق المعرفة.

ونظيره قول الآخر يصف الفصيل وهو يثب على الناقة ويعلوها ويلقي نفسه عليها، لأنها قد بركت فلا يتمكن من أن يرتضع فهو يفعل ذلك لتثور الناقة:

يقتاعها كل فصيل مكرم كالحبشي يرتقي في السلم

(يقتاعها) يفعل، من قولهم قاع البعير الناقة إذا ضربها، يقوعها قوعاً أراد يعلوها ويثب عليها، وشبه بالحبشي في هذه الحالة المخصوصة لما يكون له عند ارتفاعه في السلم من تصعد بعض أعضائه وتسفل بعض، على اضطراب مفرط وغثارة شديدة⁽¹⁾. وذلك كما ترى في أنه اختلاف في جهات أبعاد الجسم على غير نظام مضبوط كحركات الفصيل في الماء وقد خلا له. وقد عرفت أن الاختلاف في جهات الحركات الواقعة في أبعاد الجسم كالتركيب بين أوصاف مختلفة ليحصل من مجموعها شبه خاص.

واعلم أن هذه الجهات يغلب عليها الحكم المتفاد من العبرة الثانية. وذلك أن كل هيئة من هيئات الجسم في حركاته إذا لم يتحرك في جهة واحدة فمن شأنها أن تقل وتعز في الوجود فيباعدها ذلك أيضاً من أن تقع في الفكر بسرعة زيادة مباحدة مضمومة إلى ما يوجب حديث التركيب والتفصيل فيها. ألا ترى أن الهيئة التي اعتمدها في تشبيه البرق بالمصحف ليست تكون إلا في النادر من الأحوال وبعد عمد من الإنسان وخروج عن العادة ومقصد خاص أو عيب غالب على النفس غير معتاد، وهكذا حال الفصيل في وثوبه على أمه ليشيرها وانسيابه في الماء ونزوه كما توجه رؤيته الماء خالياً وطباع الصغير والفصيلة⁽²⁾ مما لا ترى إلا نادراً. وليس الأمر في هذا النحو كالأمر في حركة الدولاب والرحا والسهم ونحو ذلك من الحركات المعتادة التي تقع في مصارف العيون كثيراً.

(1) كأنه أراد الجهل والحمق لا باعتبارهما أنفسهما بل باعتبار ما يصدر عنهما وهو شدة الاضطراب في هجنة. والأغثر: الجاهل والأحمق، والغثرة بالتحريك والغثاء: الجماعة المختلطة (ش).

(2) الفصيلة أنثى الفصيل.

ومما يقوى فيه أن يكون سبب غرابته قلة رؤية العيون له ما مضى من تشبيه الشمس بالمرأة في كف الأشل وذلك أن الهيئة التي تراها في حركة المرأة إذا كانت في كف الأشل مما ترى نادراً في الأقل فربما قضى الرجل دهره ولا يتفق له أن يرى امرأة في يد مرتعش. هذا - وليس موضع الغرابة من التشبيه دوام حركة المرأة في يد الأشل فقط بل النكتة المقصودة فيما يتولد من دوام تلك الحركة من الالتماع وتموج الشعاع وكونه في صورة حركات من جوانب الدائرة إلى وسطها، وهذه صفة لا تقوم في نفس الرائي المرأة الدائمة الاضطراب إلا أن يستأنف تأملاً، وينظر متبثناً في نظره متمهلاً، فكأن ههنا هيتين كلتاها من هيئات الحركة. إحداها حركة المرأة على الخصوص الذي يوجه ارتعاش اليد، والثانية حركة الشعاع واضطرابه الحادث من تلك الحركة. وإذا كان كون المرأة في يد الأشل مما ترى نادراً ثم كانت هذه الصفة التي هي كائنة في الشعاع إنما ترى وتدرك في حال رؤية حركة المرأة بجهد وبعد استئناف أعمال للبصر فقد بعدت عن حد من يعتاد رؤيته مرتين، ودخلت في النادر الذي لا تألفه العيون من جهتين، فاعرفه.

[مآخذ التشبيه من هيئات الحركة والسكون]

واعلم أنه كما تعتبر هيئة الحركة في التشبيه فكذلك تعتبر هيئة السكون على الجملة وبحسب اختلافه نحو هيئة المضطجع وهيئة الجالس ونحو ذلك. فإذا وقع في شيء من هيئات الجسم في سكونه تركيب وتفصيل لطف التشبيه وحسن. فمن ذلك قول ابن المعتز يصف سيلاً:

فلما طغا ماؤه في البلاد وغصّ به كل واد صد⁽¹⁾
نرى الشور في منه طافيا كضجة ذي التاج في المرقد
وكقول المتنبي في صفة الكلب: * يُقعى جلوسَ البدويّ المصطلي⁽²⁾ *

(1) في نسختنا: * وغص به فارصد * وفي نسخة الأستانة: «كل قاد قصد» وفي نسخة الديوان التي في مصر «كل راء صد» والصواب أنها «وغص به كل واد صد» والصدي الظمان.

(2) تمامه: «بأربع مجدولة لم تجدل».

فقد اختص هيئة البدوي المصطلبي في تشبيه هيئة سكون أعضاء الكلب ومواقعها فيها⁽¹⁾، ولم ينل التشبيه حظاً من الحسن إلا بأن فيه تفصيلاً من حيث كان لكل عضو من الكلب في إقعائه موقع خاص وكان مجموع تلك الجهات في حكم أشكال مختلفة تؤلف فتجىء منها صورة خاصة.

ومن لطيف هذا الجنس قوله في صفة المصلوب⁽²⁾:

كأنه عاشق قد مد صفحته يوم الوداع إلى توديع مرتحل
أو قائم من نعاس فيه لوثته مواصل لتمطيه من الكل
ولم يلطف إلا لكثرة ما فيه من التفصيل. ولو قال كأنه متمط من نعاس
واقصر عليه كان قريباً من المتناول لأن الشبه إلى هذا القدر يقع في نفس الراي
المصلوب لكونه من حد الجملة. فأما بهذا القيد وعلى هذا التقييد الذي يفيد به
استدامة تلك الهيئة فلا يحضر إلا مع سفر من الخاطر وقوة من التأمل، وذلك
لحاجته أن ينظر إلى غير جهة فيقول هو كالتمطي ثم يقول كالتمطي يمد ظهره
ويده مدة ثم يعود إلى حالته فيزيد فيه أنه مواصل لذلك، ثم إذا أراد ذلك طلب
علته وهي قيام اللوثة والكسل في القائم من النعاس. وهذا أصل فيما يزيد به
التفصيل وهو أن يثبت في الوصف أمر زائد على المعلوم المتعارف ثم يطلب له
علة وسبب.

ويشبه التشبيه في البيت قول الآخر وهو مذكور معه في الكتب:

لم أر صفًا مثل صف الزُّطُ تعين منهم صلبوا في خط⁽³⁾

(1) أي مواقع الأعضاء في تلك الهيئة «ش».

(2) يقول بعض شراح الشواهد: إن البيتين للأخطل في صفة مصلوب.

(3) الزُّطُ: طائفة من أهل الهند معرب «بت» تنسب إليهم الثياب الزطية. وقوله: «من كل عال» أي أن ذلك الخط مؤلف من أشجار عالية الجذوع كل واحد على جذع شجرة وبالشط: صفة لعال جذعه. والضمير في «كأنه» للواحد من المصلوبين في جذعه أي الجذع الذي صلب عليه. والمشتط: الخارج عن الحد في طوله والمخامرة: المخالطة والنوم: فاعل خامر والمفعول ضمير محذوف يرجع على المصلوب فإن نصب النوم=

من كل عال جذُّعه بالشط كأنه في جذِّعه المشتط
أخو نعاس جد في التمطي قد خامر النوم ولم يغط
فقوله «جذُّ في التمطي» شرط يتم التشبيه كما أن قوله «مواصل» كذلك إلا
أن في اشتراط المواصله من الفائدة ما ليس في هذا. وذاك أنه يجوز أن يبالغ
ويجتهد ويجد في تمطيه ثم يدع ذلك في الوقت ويعود إلى الحالة التي يكون
عليها في السلامة مما يدعو⁽¹⁾ إلى التمدد. وإذا كان كذلك كان المستفاد من هذه
العبارة⁽²⁾ صورة التمطي وهيئته الخاصة وزيادة معنى وهو بلوغ الصفة غاية ما
يمكن أن يكون عليها. وهذا كله مستفاد من الأول ثم فيه⁽³⁾ زيادة أخرى وهو
أخص ما يقصد من صفة المصلوب وهي الاستمرار على الهيئة والاستدامة لها،
فأما قوله بعد: «قد خامر النوم ولم يغط» فهو إن كان كأنه يحاول أن يربنا هذه
الزيادة من حيث يقال إنه إذا أخذه النعاس فتمطى ثم خامر النوم فإن الهيئة
الحاصلة له من جده في التمطي تبقى له فليس ببالغ مبلغ قوله: «مواصل لتمطيه»
وتقييده من بعد بأنه «من الكسل» واحتياطه قبل بقوله «فيه لوثته».

وشبيه بالأول في الاستقصاء قول ابن الرومي:

كأن له في الجو حبلاً يبوعه إذا ما انقضى حبل أتيح له حبل⁽⁴⁾
يعانق أنفاس الرياح مودعاً وداع رحيلا لا يحط له رحل
فاشتراطه أن يكون له بعد الحبل الذي ينتهي ذرعه حبل آخر يخرج من بوع
الأول إليه كقوله «مواصل لتمطيه من الكسل» في استيفاء الشبه والتبيه على
استدامته لأنه إذا كان لا يزال يبوع حبلاً لم يقبض باعه ولم يرسل يده. وفي ذلك

= فالفاعل ضمير يعود إليه. وغط النائم: نخر وتردد نفسه صاعداً إلى حلقه حتى يسمعه من
حوله، ولبعض شراح الشواهد تعف في معنى الأبيات لا حاجة إلى ذكره.

(1) مما يدعو متعلق بالسلامة.

(2) أي عبارة الأبيات.

(3) أي في الأول - الثلاثة عن شيخنا.

(4) يبوعه: يقيسه بالباع كما أن يذرعه يقيسه بالذراع.

بقاء شبه المصلوب على الاتصال فاعرفه .

واعلم أن من حَقَّ أن لا تضع الموازنة بين الشبهين في حاجة أحدهما إلى زيادة من التأمل على وقتنا هذا، ولكن تنظر إلى حالهما في قوى العقل ولم تسمع بواحد منهما، فتعلم أن لو أرادهما مريد واتفقا له جميعاً ولم يكن قد سمع بواحد منهما أيهما كان يكون أسهل عليه، وأسرع إليه، وأعطى بيديه وأيهما تجده أدل على ذكاء من يسمعه منه، وأرجى ليخرج من تقوله⁽¹⁾، وذلك أن تقابل بين تشبيه النجوم بالمصابيح والمصابيح بها وبين تشبيه سل السيوف بعقائق البرق وتشبيهها بسل السيوف، فإنك تعلم أن الأول يقع في نفس الصبي أول ما يحس بنفسه وأن الثاني لا يجيب إجابته، ولا يبذل طاعته، وكذلك تعلم أن تشبيه الشريا بنور العنقود لا يكون في قرب تشبيهها بتفتح النور، وأن تشبيه الشمس بالمرأة المجلوة كما مضى يقع في نفس الغر⁽²⁾ العامي والصبي، ولا يقع تشبيهها بالمرأة في كف الأشل إلا في قلب الحصيف⁽³⁾ وتشبيهها في حركتها تلك بمرأة تضطرب على الجملة من غير أن تجعل في كف الأشل قد يقع لمن لا يقع له بهذا التقييد، وذلك لما مضى من حاجته إلى الفكرة في حال الشمس وأن حركتها دائمة متصلة، ثم طلب متحرك حركة غير اختيارية، وجعل المرأة صادرة عن تلك الحركة ومأسورة في حكمها دائماً، وإنما اشترط عليك هذا الشرط لأنه لا يمتنع أن يسبق الأول إلى تشبيه لطيف يحسن تأمله ويدل على ذكائه وحدة خاطره ثم يشيع ويتسع ويذكر ويشهر حتى يخرج إلى حد المبتذل وإلى المشترك في أصله، وحتى يجري مع دقة تفصيل فيه مجرى المجل الذي تقوله الوليدة الصغيرة والعجوز الورهاء⁽⁴⁾، فإنك تعلم أن قولنا «لا يُشَقُّ غباره» الآن في الابتذال كقولنا: لا يلحق ولا يدرك وهو كالبرق ونحو ذلك. إلا أنا إذا رجعنا إلى أنفسنا علمنا أنه لم يكن كذلك من أصله، وأن هذا الابتذال أتاه بعد أن قضى زماناً

(1) التقول: الابتداء وأصله في الكذب ولكنه يراد منه الاختراع الحسن .

(2) الغر بالكسر: من لا تجربة له من شاب وشابة .

(3) الحصيف: هو القوي العقل الجيد الرأي .

(4) الورهاء: الحمقاء .

بطراءة الشباب وجِدَّة الفَتَاء وبِعِزَّة المنيع، ولو قد منعك جانبه وطوى عنك نفسه، لعرفت كيف يَشْقُ مطلبه، ويصعب تناوله. ومثل هذا وأظهر منه أمراً أن قولنا «أما بعد» منسوب في الأصل إلى واحد بعينه وإن كان الآن في البِذلة⁽¹⁾ كقولنا: هذا بعد ذاك - مثلاً.

[النفيس يتنزل بكثرة الاستعمال]

وهكذا الحكم في الطرق التي ابتدأ بها الأولون، والعبارات التي لخصها المتقدمون، والقوانين التي وضعوها حتى صارت في الاشتراك كالشيء المشترك من أوله، والمبتذل الذي لم يكن الصون من شأنه، والمبذول الذي لم يعترض دونه المنع في شيء من زمانه، ورب نفيس جُلب إليك من الأمكنة الشاسعة، ورُكِب فيه النوى الشطون⁽²⁾ وقُطِع به عرض الفيافي⁽³⁾ ثم أخفى عنك فضله، حتى جهلت قدره أن سهل مرامه، واتسع وجوده، ولو انقطع مدده عنك حتى تحتاج إلى طلبه من مَظنته لعلمت إحسان الجائي به إليك، والجالب المقرب نيله عليك، ولأكثر من شكره بعد أن أقللت، وأخذت نفسك بتلافي ما أهملت، وكذلك رُبَّ شيء نال فوق ما يستحقه من شغف النفوس به؛ وأكثر مما توجهه المنافع الراجعة إليه، لأنه⁽⁴⁾ لا يتسع اتساع الأول الذي فوائده أعم وأكثر؛ ووجود العوض عنه عند الفقد أعسر، فكبت عزة الوجود هذا عزاً لم يستحقه بفضله، كما منعت سعة الآخر فضلاً هو ثابت له في أصله.

ويتصل بهذا الموضع حديث عبد الرحمن بن حسان، وذلك أنه رجع إلى أبيه حسان وهو صبي يبكي ويقول: «لسعني طائر» فقال حسان: صفه يا بني فقال: كأنه مُلْتَفٌّ في بُرْدِي حَبْرَة⁽⁵⁾ وكأن لسعه زنبور فقال حسان: قال ابني

(1) البذلة بالكسر: ما يستعمل من الثياب في عامة الأوقات وينزع عند إرادة الزينة.

(2) الشطون بالفتح البثر البعيدة القعر وهو بالضم مصدر شطت الدار إذا بعدت.

(3) الفيافي جمع فيفاء وتقصّر وهي المكان المستوي.

(4) هذا تعليل لنيله فوق ما يستحقه وهو عدم اتساعه وانتشاره كما انتشر الأول.

(5) البرد - وزان قفل - ثوب مخطط. والحبرة وزان عنبه: ضرب من برود اليمن.

الشعر ورب الكعبة⁽¹⁾. أفلا تراه جعل هذا التشبيه مما يستدل به على مقدار قوة الطبع، ويجعل عياراً في الفرق بين الذهن المستعد للشعر وغير المستعد له، وسره ذلك من ابنه كما سره نفس الشعر حين قال في وقت آخر:

اللّٰه يعلم أنني كنت منتبذاً في دار حسان أصطاد اليعاسيبا⁽²⁾

(فإن قلت) إن التشبيه يتصور في مكان الصبغ والنقش العجيب ولم يعجب حسانَ هذا وإنما أعجبه قوله «ملتف» وحسنُ هذه العبارة إذ لو قال: طائر فيه كوشي الحبرة، لم يكن له هذا الموقع، فهو إن يكن مشبهاً ما أنت فيه فمن حيث دلالة على الفطنة في الجملة (قيل) مسلم لك أن نكتة الحسن في قوله: «ملتف» ولكن لا يسلم أنه خارج من الغرض بل هو عين المراد من التشبيه وتمامه فيه. وذلك أنه يفيد الهيئة الخاصة في ذلك الوشي والصبغ وصورة الزنبور في اكتسائه بهما ويؤدي الشبه كما مضى من طريق التفصيل دون الجملة، فما ظننت أنه يبعده عما نحن بصده هو الذي يدنيه منه، ولقد نفيت العيب من حيث أردت إثباته.

(1) هذه الكلمة حجة على الذين يعرفون الشعر بأنه كلام مقفى موزون ولم يدخلوا في مفهومه التخيل وقصد التأثير الذي هو روح الشعر، ومثل هذا تعريفهم الصلاة بأنها أقوال وأفعال ولم يذكروا خشوع القلب الذي هو روحها وهكذا اكتفوا بالصورة الظاهرة دون المعاني المقصودة حتى أضعنا الدين واللغة.

(2) الانتباز هنا: التنحي واليعاسيب جمع يعسوب: ضرب من الحجلان «جمع حجل»، وطائر أصغر من الجراد أو أعظم لا يضم جناحه إذا وقع، تشبه به الخيل في الضمر.